للاتصال بـ «وجهات نظر»: هاتف: 4144244-2-971 فاكس: 4144245-2-971 ص.ب: 6879 أبوظبي
www.wajhat.com E-Mail:wajhat@emi.ae

حامد
hamednajeeb@hotmail.com

النبي الأمي: هل كان يقرأ ويكتب؟

د. محمد عابد الجابري
أكاديمي ومفكّر - المغرب

يدور الكلام في هذا المقال حول مسألة كانت منذ القديم موضوع نقاش وجدل: مسألة ما إذا كان نبينا محمد عليه الصلاة والسلام يعرف القراءة والكتابة. ومع أن هذه المسألة تتعلق بالتاريخ أساساً، وتاريخ السيرة النبوية المحمدية خصوصاً، فإن كون القرآن قد وصف النبي محمداً عليه الصلاة والسلام بأنه "أمي" يجعل منها عنصراً مهما في الفضاء القرآني بحيث لا يمكن التعامل مع هذا الفضاء من دون تحديد مدلولها داخله ودورها فيه.

سننطلق في بحثنا هنا من فحص ما ذكره كتاب السيرة والمفسرون أولا، لننتقل بعد ذلك إلى محاولة بناء فهم موضوعي لما ورد في القرآن في هذا الشأن، ولنبدأ بأول واقعة في السيرة النبوية وضعت كُتاب هذه السيرة والمؤرخين، وغيرهم، أمام مسألة ما إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقرأ ويكتب، أم لا؟ نقصد ما روي على لسان النبي نفسه حول الظروف التي رافقت أول اتصال للملاك جبريل به ليبشره بالنبوة والرسالة. وقد حفظ لنا كل من كتّاب السيرة وجامعي الحديث وقدماء المؤرخين رواييْن مرجعيتيْن لحديث يشرح فيه النبي بنفسه تفاصيل ذلك الحدث التاريخي الذي دشن عهداً جديداً في تاريخ البشرية، عهداً قوامه قيام دين سماوي جديد -إلى جانب اليهودية والنصرانية- سرعان ما أنشأ عالماً جديداً هو ما يعرف اليوم بالعالم الإسلامي.

أ- رواية ابن إسحاق: نبدأ برواية ابن إسحاق لأنه أسبق زمناً (85- 152هـ)، وقد ورد فيها ما يلي: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور (يعتكف للعبادة) في حراء (غار بجبل قرب مكة) من كل سنة شهراً، وكان ذلك مما تحنّث (تتعبد) به قريش في الجاهلية (...)، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته، ورحم العباد بها، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فجاءني جبريل، وأنا نائم (في رؤيا المنام)، بنمط (وعاء) من ديباج (ثوب فارسي مزركش) فيه كتاب، فقال: اقرأ! قال (النبي): ما أقرأ؟ قال : فغتّني به (ضمني وعصرني) حتى ظننت أنه الموت! ثم أرسلني فقال: اقرأ. قال (النبي): قلت: ما أقرأ؟ قال: فغتني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني فقال: اقرأ. قال، قلت: ماذا أقرأ؟ قال: فغتني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. قال (النبي): فقلت: ماذا أقرأ؟ (ويضيف النبي): ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي؛ فقال: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ" (العلق 1-5). قال (النبي): فقرأتها، ثم انتهى. فانصرف عني، وهببت من نومي، فكأنما كتبت في قلبي كتابا".

ب- رواية البخاري: وفي صحيح البخاري (194-256 هـ) عن عائشة زوج النبي (بعد خديجة) أنها قالت: "أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حُبِّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد (...) حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء. فجاءه المَلَك فقال: اقرأ. قال ما أنا بقارئ! قال (النبي) فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ. قلت ما أنا بقارئ! فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ! فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: "اقرأ باسم ربك الذي خلق" (الآيات السابقة)، فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: زملوني، زملوني (لفّفوني)، فزملوه حتى ذهب عنه الروع".

هذا وقد أورد ابن جرير الطبري (224-310هـ) في تاريخه عدة روايات في نفس الموضوع، جاء فيها كلها جواب النبي على جبريل بصيغة: "ما أقرأ"؟ و"ماذا أقرأ". وبعض تلك الروايات رويت عن نفس المصدر الذي روى عنه البخاري، أعني: عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم. ما نريد لفت النظر إليه هنا أمران:

أولهما ذلك الاختلاف الذي بين صيغة جواب النبي لجبريل في كل من رواية ابن إسحق وروايات الطبري من جهة ("ما أقرأ"؟، "ماذا أقرأ"؟)، والصيغة الواردة في رواية البخاري (ما أنا بقارئ!)، من جهة أخرى. الصيغة الأولى استفهام يفيد ضمنيا أن النبي يعرف القراءة، فهو يطلب ماذا يقرأ؟ أما الصيغة الثانية فهي تنفي عنه معرفة القراءة: ما أنا بقارئ! وإذا كان من الممكن حمل "ما" في "ما أقرأ" على النفي أيضاً، إضافة إلى الاستفهام -في رواية ابن إسحق-، فمن الممكن فعل عكس ذلك بالنسبة للصيغة الأخرى "ما أنا بقارئ"، أعني حملها على الاستفهام، إضافة إلى النفي -في رواية البخاري- على اعتبار الباء زائدة (قارن: ما أنا فاعل بكم؟). غير أن عبارة "ماذا أقرأ"؟ التي تكررت في روايات ابن اسحق والطبري، لا يمكن حملها إلا على الاستفهام، وبالتالي يكون رد النبي على جبريل استفساراً عما يريد منه أن يقرأ، وليس نفياً لمعرفة القراءة.

> ذلك لا يعني أن النبي كان يقرأ فعلاً في كتاب قدمه له جبريل، فالأمر يتعلق هنا بـ«الوحي» وهو إلقاء في "الروع" (أو النفس).

يمكن أن يقال إن المقصود بالقراءة هنا ليس القراءة التي تعني التهجّي في كتاب أو في ورق أو غيره، بل المقصود هو مجرد التلفظ بالأصوات التي تفيد معنى في اللغة، أعني القراءة، لا بمعنى "التتبع بالعين لحروف نص مكتوب والتعرف عليها ومعرفة الأصوات التي تخصها" lire,read بل بمعنى استظهار ما تم حفظه وتلاوته .réciter,recite وفي هذه الحالة سيكون مضمون طلب جبريل "اقرأ"، هو: أعد التلفظ بما ستسمع! والجواب المناسب في هذه الحالة هو الاستفسار: "ماذا أقرأ"؟ وليس النفي إذ لا يعقل أن ينفي النبي عن نفسه القدرة على إعادة التلفظ بما يسمع! وإذا كان من الممكن القول إن عبارة "ما أنا بقارئ" تعني: ما أنا ممن يعرف "القراءة"، بمعنى القراءة في الكتاب، فهذا غير وارد لأن جبريل لم يطلب من النبي أن يقرأ في كتاب، وإن كان لفظ "الكتاب" قد ذكر مرتين في رواية ابن إسحاق كما رأينا. وإذا فرضنا أن جبريل وضع أمامه كتاباً وقال له: "اقرأ"، فإنه لا يمكن أن يفعل ذلك لو لم يكن يعرف أن النبي يحسن القراءة في كتاب! على أن الصيغة التي تفيد مجرد القراءة بمعنى التلاوة تناسب سؤال جبريل كما تناسب جوهر المسألة عند من يفهم من الوصف الذي وصف به القرآن النبي محمداً عليه الصلاة والسلام، أعني "الأمي" في قوله "النبي الأمي"، على أنه "عدم المعرفة بالقراءة والكتابة". غير أن هذا النوع من الفهم ليس ضرورياً في نظرنا، فليس من شرط النبي أن لا يعرف القراءة ولا الكتابة. ثم إنه لا يليق بنا أن نتصور أن من كمالات الإنسان الذي يختاره الله للنبوة أن يكون لا يعرف القراءة والكتابة! أما ما يوظف فيه هذا النوع من الفهم، من أن القرآن وحي من الله بدليل أن الموحى إليه به كان لا يعرف القراءة والكتابة، الشيء الذي يستدلون عليه بقوله تعالى: "وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ" (العنكبوت 48)، فالحاجة إلى هذا النوع من الدليل غير قائمة، فضلا عن أن معنى الآية لا يخدم هذا "الدليل"، كما سنرى لاحقاً.

هناك قرينة أخرى تدل على أن معنى القراءة، في رد النبي على جبريل بقوله "ماذا أقرأ"؟، ينصرف إلى "القراءة"، بمعنى القراءة في كتاب. هذه القرينة هي ورود لفظ "كتاب" في العبارة التي قال فيها النبي: "فجاءني جبريل، وأنا نائم، بنمط من ديباج فيه كتاب". وقوله -في رواية ابن إسحاق- "وهببت من نومي، فكأنما كتبت (الآيات التي قرأها عليه جبريل) في قلبي كتابا". إن ذكر الكتاب في سياق هذا الحديث، مرتين، قرينة واضحة تشير إلى أن الأمر يتعلق بشخص يعرف الكتابة والقراءة ويقرأ في كتاب، ويريد أن يبين لمخاطبه نوع مشاعره عندما كان يخوض هذه التجربة مع جبريل. ولكن ذلك لا يعني أن النبي كان يقرأ فعلا في كتاب قدمه له جبريل، فالأمر يتعلق هنا بـ"الوحي" وهو إلقاء في "الروع" (أو النفس). ومع ذلك فإنه بدون إعطاء الوظيفة الخطابية، التي ذكرنا، للعبارتين اللتين ذكر فيهما النبي "الكتاب" ستكونان فضلاً من القول، ونحن ننزه النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك.

الترجمة سبيل التقدم

البدايات الأولى للنهضة الأوروبية في القرنين الثالث والرابع عشر الميلادي، حدثت بعد قيام العلماء الأوروبيين بترجمة المؤلفات الفلسفية العربية، خاصة تلك المتصلة بشروحات أرسطو التي وضعها الفيلسوف ابن رشد الذي أحرق المسلمون كتبه! وكذلك المؤلفات الطبية والعلمية لابن سينا والغزالي قبل أن يضع كتابه "تهافت الفلاسفة"، وكذلك الأمر لليابانيين الذين قاموا بترجمة ما لا يقل عن سبعين ألف كتاب في مختلف العلوم الغربية، خاصة المؤلفات العلمية بعد هزيمتهم في الحرب العالمية الثانية، وها هي انطلاقتهم العلمية في شتى بقاع الأرض. يقول هاشم صالح، في كتابه "مدخل إلى التنوير الأوروبي"، ما نصه: "لقد خرج العرب من التاريخ عندما كفوا عن التثاقف مع الآخرين، عندما كفوا عن الترجمة. إن سر النهضة الأوروبية التي حصلت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر هو نفسه سر "القرن الثاني عشر"، أي سر جميع النهضات: إنه الترجمة والانفتاح على الآخرين. من لا يترجم، من لا يسمح بتدفق دم جديد في شرايينه وعروقه فإنه ينشف قليلا قليلا ويموت. وهذا هو سر ذبول الفكر العربي".

الترجمة العربية التي ابتدأها المأمون في العصر العباسي الثاني وأنتجت ما يسمى بالحضارة العربية- الإسلامية، لارتباط اللغة بالدين، والتي مثلت الامتداد الحضاري للفكر اليوناني بروح عربية- إسلامية، والتي للأسف لم تستمر طويلاً لأسباب ذاتية تتصل ببنية الفكر الديني الرافضة للفلسفة والعقلانية، هي التي يحتاجها العرب الضائعون اليوم في درب الحضارة الإنسانية، لكن مع فرق أساسي عن اليابانيين، وهو حاجتهم لترجمة المؤلفات الفلسفية الغربية، ثم لاحقاً يمكن ترجمة المؤلفات العلمية، لماذا؟ ببساطة لأن الأمة العربية تعيش اليوم في ظل هيمنة الفكر الديني، حالة من التوحش الحضاري الساعي إلى الانعزال والتقوقع على الذات بوهم تضخم حالة "الأنا"، في الذات المسلمة، وهي حالة مرضية يرفض العقل الديني الاعتراف بها. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن الغرب الذي اعتمد في انطلاقته الحضارية على ترجمة التراث الفلسفي العربي، لم يهتم مطلقاً بالمؤلفات الدينية، فإن ذلك يستلزم الحاجة للمؤلفات الفلسفية الغربية لكي يستعيد العقل العربي حالته الطبيعية كعقل إنساني في المقام الأول، لأن الفكر الديني حالة تابعة للعقل وليست سابقة عليه، بما يعني إمكانية انطلاق العقل في آفاق المعرفة الإنسانية دون الحاجة للدين. فضلاً عن حقيقة أن العقل الإنساني "يتأنسن" بالفلسفة عبر التشابك العقلي مع أفكار الآخرين والتفاعل معها، وهو أمر يحتاج إلى الانفتاح العقلي والروحي والابتعاد عن الأحكام المسبقة أو الحتميات الدينية، وهذا هو المشكل وجوهر الأزمة الفكرية عند العرب المسلمين.

الترجمة الجيدة هي السبيل الوحيد اليوم للخروج من أزمة التخلف الفكري في عالمنا العربي... الترجمة الجيدة لمؤلفات الفلسفة، وللروايات والقصص والدراسات النقدية على اختلافها... ستتيح مجالاً خصباً للعقلية العربية. وبعد الترجمة لابد من فرضها في المناهج الدراسية بشكل مكثف حتى يلتزم بها الشباب ضمن مساقات منهجية علمية، بما يتيح لهم حرية التفكير واستخدام العقل في القضايا الفلسفية، ومن ثم تتسع رقعة التفكير الحر لديهم، وبالتالي يتمكنون من تقبل الآخر المختلف. ومثل هذا الجهد الضخم يحتاج إلى موارد مالية ضخمة لا يمكن أن يوفرها غير الدولة. وفي الحقيقة أن الدولة العربية المعاصرة لا تريد القيام بمثل هذا العمل الذي قد يؤدي إلى تنامي روح التمرد لدى الشباب ضد النظام الاجتماعي والديني، وليس السياسي فقط. فالفلسفة تعني فيما تعنيه، الرغبة المستمرة في التغيير نحو الأفضل، والتوسع الفكري الذي هو نتاج طبيعي لعملية تعلم الفلسفة ودراستها، وهو أمر له استحقاقات اجتماعية هائلة. هل يرغب النظام السياسي العربي حقاً في حدوث مثل هذا الوضع في المجتمع العربي؟ وهل يرغب رجل الدين في ذلك؟ إلا أن السؤال هو: هل يملك الشباب العربي الرغبة الصادقة للسير في ذلك السبيل الخطر؟ لا مفر من ذلك للخروج من حالة الجمود الفكري التي تلف العالم العربي. فالعرب بحاجة لترجمة آلاف الكتب الغربية خلال السنوات العشر القادمة حتى يتمكنوا من التحرك بشكل إيجابي في مضمار الحضارة الإنسانية.

د. أحمد البغدادي

الإمارات اليوم

«تسريبات» صحفية

إحدى الإشكاليات المتعارف عليها في الصحافة العربية عموماً أنها تقع في أحيان كثيرة في ورطة المزج بين الخبر والرأي، وهذه ظاهرة واضحة يمكن البرهنة عليها في مواقف كثيرة، ولكن في الآونة الأخيرة تكررت في بعض صحفنا المحلية "التسريبات الإخبارية" التي تتحدث عن سياسات أو إجراءات أو قرارات جديدة في هذه الوزارة أو تلك ثم ما تلبث الحقائق أن تتكشف وتنتفي صحة هذه التسريبات، التي تثير في كثير من الأحيان نقاشات مجتمعية وتقسم الجمهور إلى "فسطاطين" بين مؤيد ومعارض رغم أن الجدل جميعه يدور حول قضية وهمية لا أساس لها.

التسريبات مسألة تقليدية في الممارسات والأعراف الصحفية، بل أحياناً ما تعبر عن حرفية مهنية ومهارة صحفية في اختراق جدر الصمت في المؤسسات التي تمارس تعتيماً إعلامياً منهجياً حول سياساتها، وهي تعكس أيضاً مقدرة الصحفي على بناء شبكة علاقات قوية تتيح له التعرف إلى ما يدور وراء الكواليس بما يعود بالنهاية بالفائدة على صحيفته. وهكذا فإن التسريبات تعد أحد فنون الممارسة المهنية المحمية بقوانين الصحافة الحرة التي تنص على حق الصحفي في عدم البوح بمصدره وحماية أسراره المهنية، ولكن عندما يساء استخدام التسريبات بحيث تبدو أقرب إلى "الشائعات الإعلامية"، فإننا نكون بصدد مسألة بالغة الخطورة بالنسبة إلى الوسيلة الإعلامية، لأنها تفقدها مصداقيتها واحترامها في عيون جمهورها، ولذا فإن صدقية الخبر تستمد في بعض الأحيان من صدقية الصحيفة حتى لو كان مصدره مجهولاً أو رفض الإفصاح عن هويته لاعتبارات ما، بينما يبدو الأمر معكوساً في أحيان أخرى، حيث يتشكك القرّاء في صدقية خبر ما حتى لو نسب إلى مصدر معروف، ومن هنا كانت الصدقية عاملاً بالغ الحيوية بالنسبة إلى الوسيلة الإعلامية.

وفي الأيام الأخيرة تداولت بعض الصحف المحلية أخباراً ذات صلة وثيقة بقطاعات وشرائح عريضة من الجمهور والقرّاء، واستهلت هذه الأخبار بمقدمات من نوع "علم" و"أشار مصدر مطلع" و"كشف مسؤول رفض ذكر اسمه"، وغير ذلك، ثم عادت الصحف لتنفي ما نشر على لسان مصادر أيضاً في الجهات ذاتها!!

الصحافة هنا قد تقع ضحية تردد بعض الجهات في الإعلان عن إجراءات جديدة، وقد تقع ضحية عدم تيقن مصادرها من التسريبات التي تبوح بها، أو عدم إلمامهم بالتفاصيل الكاملة للموضوعات وتطوراتها، وربما قد تقع أيضاً ضحية "مكائد" و"فخاخ" تدبّر لهذا المسؤول أو ذاك، أو تستخدم كوسيلة لـ"حرق" إجراء ما بالإعلان المنقوص عنه بما يثير حوله اللغط وتستخدم ردود الأفعال السلبية كورقة ضغط لتجميد الإجراء أو وأده نهائياً أو مرحلياً!! الحيل والألاعيب كثيرة، والصحيفة "الضحية" قد تكون حصان طروادة الباحث عن سبق يغذي تلهفه لكل ما هو جديد ومميز لاسيّما من الأخبار المحلية.

جوهر المشكلة لا يكمن بالضرورة في الصحيفة، بل بالأساس في سياسات التعتيم ونظرات الشك وسوء الإدراك القائم بين بعض المسؤولين والصحافة، مع أن حرية الصحافة هي الضامن الأساسي للصحة المجتمعية ومواجهة الأخطاء الفردية وتسليط الضوء على السلبيات ضمن موقف ساع إلى مصلحة عامة، وهذا لا يعني بالضرورة أن الصحافة منزهة عن الأخطاء أو أن موضوعية النقد مكفولة تماماً ولكن هذا ما يحدث في غالب الأحوال، أو هكذا يفترض.

عن نشرة «أخبار الساعة» الصادرة عن مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية
www.ecssr.ac.ae

المقاومة ومحيطها الخارجي

د. أحمد يوسف أحمد
مدير معهد البحوث والدراسات العربية - القاهرة

تناولت المقالة السابقة قضية علاقة المقاومة بالسلطة، وركز التحليل فيها على أن ثمة خطأ استراتيجياً ربما يكون قد وقع في تولي المقاومة الفلسطينية السلطة قبل التحرير سواء كما فعلت "فتح" في أعقاب أوسلو 1993 أو "حماس" بعد الانتخابات التشريعية 2006، وانتهت الخلاصة إلى المطالبة بإعادة التفكير استراتيجياً في مسألة علاقة المقاومة بالسلطة، الأمر الذي قد يساعد على التوصل إلى مخرج من الأزمة الداخلية الحالية في فلسطين على سبيل المثال، وتتناول السطور التالية علاقة المقاومة بمحيطها الخارجي على النحو الذي يعزز التحليل السابق.

اعتمدت حركات التحرر الوطني في الخبرة المعاصرة على الدعم الداخلي بصفة أساسية، فلا استمرار للمقاومة بغير تأييد شعبي، ولكن هذه الحركات كانت لها في الوقت نفسه قواعد تأييد خارجية تمدها بأسباب العون المادي والمعنوي مما لا يمكن توفيره في الداخل، فكانت لدينا على سبيل المثال حالة الدعم المصري خاصة والعربي عامة للمقاومة الجزائرية في خمسينيات القرن الماضي ومطلع ستينياته، والدعم الصيني- السوفيتي للمقاومة في فيتنام في عقد الستينيات من القرن نفسه، والدعم المصري للمقاومة في جنوب اليمن (1963-1967)...إلخ.

وفي بعض الحالات كانت تثور إشكالية العلاقة بين المقاومة ومحيطها الخارجي، فإذا غاب التنسيق كان ممكناً أن تقوم المقاومة بعمليات ضد العدو فيرد بضرب البنية التحتية لقواعد التأييد الخارجي طالما أنه غير قادر على الإمساك بجسد المقاومة، الأمر الذي أدى أحياناً إلى صدامات بين المقاومة وبين ما يفترض أنه قواعد دعمها الخارجي كما في الصدام الذي وقع بين المقاومة الفلسطينية والسلطة الأردنية في 1970، وقبل ذلك التطورات التي لحقت بالعلاقة بين المقاومة الفلسطينية أيضاً والسلطة اللبنانية في أعقاب هزيمة 1967، وفي أحسن الأحوال أدت إشكالية غياب التنسيق إلى تراجع الدعم الخارجي للمقاومة إن لم يكن اختفاؤه تماماً.

في حركات المقاومة العربية الراهنة في فلسطين ولبنان والعراق ثمة قواسم مشتركة في علاقتها بمحيطها الخارجي تشير جميعها إلى تراجع الدعم الذي يقدمه هذا المحيط للمقاومة بل وربما تحوله إلى محيطٍ معادٍ ولو على نحوٍ غير مباشر.

بدأت المقاومة الفلسطينية باحتضان النظام العربي الرسمي لها إلى الحد الذي أنشئت فيه منظمة التحرير الفلسطينية وجيشها وتم تمويلهما بقرارات من القمتين العربيتين في القاهرة والإسكندرية 1964 اللتين عقدتا أصلاً بدعوة من جمال عبدالناصر لمواجهة المشروعات الإسرائيلية لتحويل مجرى نهر الأردن، ثم أخذت المساندة العربية لهذه المقاومة تخفت شيئاً فشيئاً عبر محطات رئيسة كان من أهمها توقيع معاهدتي السلام العربيتين بين مصر وإسرائيل في 1979 ومن ناحية وبين الأردن وإسرائيل في1994 من ناحية أخرى، فلا يعقل أن ترتبط الدولتان بمعاهدتي سلام مع إسرائيل ثم تؤيدان خيار المقاومة المسلحة ضدها. وعلى الرغم من أن سوريا بقيت تتبنى موقفاً متشدداً نسبياً في الصراع مع إسرائيل إلا أن جبهتها ظلت هادئة تماماً منذ نهاية حرب أكتوبر 1973، ناهيك عن أن تعثر علاقتها عبر الزمن بمنظمة التحرير الفلسطينية والسلطة الفلسطينية، وتركيز سوريا على الوضع في لبنان لسنوات طويلة جعل السياسة السورية في وضع غير مواتٍ لدعم المقاومة الفلسطينية المسلحة بالفعل وليس بمجرد القول.

ثم تمثلت المحطة الرئيسة التالية في غزو العراق للكويت في أغسطس 1990 والذي أفضت تداعياته الجانبية إلى تحفظ عدد من الدول العربية وبالذات الخليجية على الخط الذي تبنته السياسة الفلسطينية والذي لم يتضح فيه موقف معادٍ من هذا الغزو. وأخيراً تجيء محطة العدوان الأميركي على العراق واحتلاله في 2003 والذي أدى إلى اقتراب العصا الأميركية وغلظتها في التعامل مع خصومها في الوطن العربي، وتم هذا كله في سياق تكييف أميركي إسرائيلي للمقاومة الفلسطينية بأنها إرهاب يجب قتاله في إطار الحرب العالمية ضد الإرهاب.

> حركات المقاومة العربية الراهنة تعمل في إطار محيط خارجي إما محايد أو معادٍ.. وما عادت تملك رفاهية الوقوع مجدداً في شرك الأخطاء.

لذلك كله خلت قرارات القمم العربية تدريجياً من الحديث عن دعم المقاومة سياسياً ولو بالألفاظ، وتعثر الدعم المالي لها الذي قررته تلك القمم ذاتها، والأكثر من هذا أن دوائر واسعة في النظام العربي الرسمي بدأت تشكك في جدوى المقاومة المسلحة، وتتحدث عن دورها في تدهور الأوضاع من المنظورين الفلسطيني والعربي.

في الساحة اللبنانية اختلف الأمر ولو إلى حين، فتمتع "حزب الله" بدعم إيراني- سوري واضح سهل منه التقارب السياسي بين هذه الأطراف من ناحية والوجود العسكري السوري في لبنان من ناحية أخرى، غير أن سحب سوريا لقواتها المسلحة من لبنان بضغط دولي ولامبالاة عربية في 2005 قوض من أسس دعمها للمقاومة دون شك، ووصل الأمر من ناحية أخرى إلى طرح جدوى المقاومة وسلاحها كموضوع للحوار في الداخل اللبناني، وما زالت إيران في وضع يمكنها من مواصلة دعم "حزب الله" وإن بصعوبات أكثر بطبيعة الحال بعد التطورات التي شهدها لبنان في 2005.

أما المقاومة العراقية فلم تحظ من البداية بدعم إقليمي يذكر، إذ كانت لسوريا حساباتها التي لا تريد استفزاز الإدارة الأميركية، ومن ثم استجابت لكثير مما طلب منها في الشأن العراقي، وجله بالتأكيد يتصل بضرورة وقف أي دعم للمقاومة. أما إيران فقد انطوى موقفها على إشكالية محددة، فهي بالتأكيد ليست مع الاحتلال الأميركي، خاصة وأن نجاح هذا الاحتلال كان يعني أن خطوته التالية يمكن أن تكون تجاهها، لكنها - كجاراتها العربيات- سكتت عليه مع فارق أساسي وهو أنها بلورت رؤية خاصة بها لا تتفق ودعم المقاومة المسلحة، ذلك أنها بالعمل السياسي كانت تستطيع -وقد فعلت- أن تصل إلى نظام سياسي عراقي جديد تسيطر عليه أغلبية برلمانية من قوى سياسية صديقة لها، فضلاً عن أن مخاوفها من الاحتلال قد هدأت بالتأكيد بعد مدة وجيزة من بدايته حين نجحت المقاومة في غرس القوات الأميركية في كثبان الرمال المتحركة في العراق، وسيبقى الأمل الوحيد في دعم إيراني للمقاومة العراقية متمثلاً في قرار أميركي أحمق بتوجيه ضربة عسكرية لإيران يكون أحد ردود فعله تصعيداً إيرانياً للمقاومة ضد الوجود الأميركي في العراق.

الخلاصة إذن أن حركات المقاومة العربية الراهنة تعمل في إطار محيط خارجي إما محايد أو معادٍ، فإذا أضفنا إلى هذا الموقف الأميركي الذي لا يكتفي بدعم إسرائيل أو رفض التعامل مع الحكومة المنتخبة من الشعب الفلسطيني، وإنما يحاول حتى أن يوقف تحويل المساعدات التي تأتي لهذا الشعب من الخارج، ناهيك عن الاستمرار في احتلال العراق ومحاولة تقويض أركان "حزب الله"، لأدركنا لماذا يتعين على المقاومة -والرسالة موجهة أساساً للساحة الفلسطينية ولكنها تخص الساحتين العراقية واللبنانية بالتأكيد- أن تحفظ وحدتها، وإذا كانت أخطاء قد حدثت أحياناً في مسارها قد مست هذه الوحدة فإنها ما عادت تملك رفاهية الوقوع مجدداً في شرك هذه الأخطاء لأن النتيجة ستكون لا قدر الله كارثة لا يمكن التحصن من تداعياتها.